الأدلة العقلية علي الإمامة

<"xml encoding="UTF-8?>

قدأثبتنا ضرورة الوحي و بعث الأنبياء، نلج معاً بحث الإمامة فنتطرق أوّلاً إلي ضرورتها عقلاً. وهنا طريقان للإستدلال"

الدليل الأوّل

لقد عرفنا خلال البحوث السابقة أن أفراد النوع الإنساني يتحركون وبالفطرة في طريق التكامل، و ان هناک مساراً تکوينيا ينبغي أن يطوي ليصل الإنسان إلي عالم النور والفرح و السرور و العودة إلي الله؛وان لذلک المسار مراتب ومنازل و درجات، و كلّ حلقة ترتبط بحلقة أعلي، حتي تصل إلي الغاية العليا حيث تنتهي قافلة الإنسانية، و هذا ما يصطلح عليه بالصراط المستقيم، الذي لا يعدو كونه سوي حقيقة يدل عليها استمرار وجود النوع الإنساني.ومن هنا نستدل أيضا علي وجود إنسان كامل موجود بين أفراد نوعه يتمتع بالكمالات الممكنة بشرياً يجسّد واقع الشريعة الإلهية و ينطوي علي مجموع الكمالات التي جاء بها النبي من عند ربِّه. وهذا الفردالمجتبي يتحرک في جادة الصراط المستقيم، لا ينحرف عن خط الكمال؛ وهذا ما يدعي بالإمام في لغة الشريعة. فالإمام فرد كامل يؤمن بكلّ العقائد الإلهية و يجسّد كلّ القيم الأخلاقية الرفيعة ويمثّل الشريعة بكلّ أحكامها.

والإمام محلّ الفيض الإلهي و انعكاسه عن عالم الغيب إلي عالم الشهادة الإنسانية، و قيادتها في مسيرة التكامل. ومن هنا نكتشف ضرورة وجود الإمام كفرد كامل يعيش بين ظهراني البشر مثالاً و قدوة ً لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم.

والإمام فرد يرتبط بعالم الربّوبية الأقدس و قد فتحت عليه أبواب الكمالات الغيبية و يتحرّک بتسديد الهدى الإلهي المباشر لخالق الإنسان و الكون و الحياة.

وهو يجسّد الغاية الإلهية من خلق النوع البشري الذي يتحرّک باتجاه هدف منشود، و إلّا كان المسار الإنساني بلا غاية، لاعلاقة له بالله عزوجل، و معني هذا انقراضه و فناؤه.

وختاماً اعترف بأنّ الدليل المذكور عسير الفهم إلي حدً ما، و للقراء عذرهم في ذلك؛ لأن إثبات المطلق يحتاج إلي سلسلة من البحوث العقلية الدقيقة البعيدة الغور. علي ان القارئ الكريم إذا راجع موضوع النبوّة العامة فسيجد عوناً له في سبر غور الدليل المذكور و فهمه بشكلّ أوضح.

الدليل الثاني

أثبتنا من خلال بحوث آنفة أنّ الله الحكيم قد أودع في الذات الإنسانية قابلية التكامل، و إنّه ليس من الحكمة أن يطوي الإنسان طريقاً يفتقد القدرة علي سلوكه.

ولقد اقتضي اللطف اللا نهائي لله عزوجل أن يهيئ للإنسان برنامجاً كاملاً وقانوناً شاملاً يكفل للبشرية عند تنفيذه و تطبيقه الحياة الأفضل في الدنيا والسعادة الأكمل في الآخرة.

ولقد جاء التشريع الإلهي بشكل يكفل نمو الفضائل الإخلاقية، و يربي الروح الإنسانية و يهيئ للإنسان أسباب الرقي في مدارج الكمال، و من هنا اقتضت حكمة الله أن يبعث رسله و أنبياءه.

ولكي تبقي حجة الله قائمة بوجود الشريعة، و قوانين الدين دون حذف أو إضافة و في متنأول البشرجميعا، و لأن الدين الدينا وجودان لا ينفكان عن بعضها و إنهما يتكاملان معا، و لأن الحياة الدنيوية لا تنفصل عن السعادة الروحية و إنها علي طريق واحد، و لكي تطبق أحكام الله، فإن من الواجب هن وجود فرد بين ظهراني البشر ينهض بمسؤولية حفظ الشريعة و يسعي إلي تطبيق شرع السماء في الأرض.

ولقد كان سيّدنا محّمد (صلي الله عليه و آله و سلم)ينهض بامهمتين معاً: إبلاغ الرسالة، و السعي إلي تطبيقها في حياة المسلمين و الناس جميعاً و لأن الرسول (صلي الله عليه و آله و سلم) كسائر البشر محكوم بالموت، توجّب ان يخلفه في مهامه فرد يقوم مقامه في حفظ الشريعة و تنفيذ إحكام الله، وان وجود مثل هكذا فرد ضرورة الهية، حتي يبقي الصراط المستقيم قائماً بين الناس بدعوههم إلي سلوك طريق التكامل.

ولإنّه معصوم عن الخطأ، منزّه عن الذنوب، فهو يجسّد ذات الصراط و يمثّل حقيقة الأحكام، و هو مثال الكمال الإنساني.وعلي هذا يكون إماماً للناس، فهم يقتدون به و يأتمون بأفعاله و أقواله و سيرته، و عليه تقع مسؤولية حفظ الشريعة والسعي لتنفذها في إقامة المجتمع الأفضل و التأسيس لحياة إنسانية تنهض علي شريعة الله، و مسؤوليته امام الخالق تبارك و تعالي، و بالتالي قيادة البشرية نحو مستقبلها الحقّيقي في الآخرة حيث السعادة الخالدة و النعيم الدائم.

ان الله الذي خلق الناس و جعل دينهم في دنياهم أنزل شريعته لتكون شاملة للحياة الدنيا و الآخرة فل احاجز بين الحياتين حتي يعيّن لكلّ حياة من يقودها، فاقتضت حكمته سبحانه أن يجعل للناس إماما و احداً يتحمل المسؤوليتين معاً، فهو إمام الدنيا و إمام للآخرة، يحفظ الشريعة و يخلط لتطبيقها في الحياة، و هذا الشخص المثال و المعصوم هو الإمام.

اشكال

ربَّما يقوم أحدهم: من الممكن أن نتصوّر وجود الشريعة و استمرارها بين الناس دون الحاجة إلي وجود الإمام المعصوم، فمن الممكن أن تتوزع أحكام الشريعة علماً و فقهاً علي أفراد الأُمّة فيكون كلّ فريق حافظاً لقسم منها، فتستمر الشريعة علما و عملاً لدي أفراد النوع الإنساني، و بالتالي وجود الصراط المستقيم الذي يربط عالم الغيب بعالم الشهادة.

الجواب

كما ذكرنا سابقاً إن أحكام السماء إنّما انزلت لهداية الناس، و لذا ينبغي استمرارها في مأمن عن التحريف حذفاً و إضافةً، فلا يأتيها الباطل من بين يديه ول امن خلقها حتي تكون - وعلي الدوام - في متنأول البشرية، يرجعون إليه ويصدرون عنها.

وببركة هذه القوانين بيقي طريق التكامل الإنساني مفتوحا لمن يريد التدرج في سلم الكمال و نيل السعادة، و هذا لا يتحقق إلا بوجود فرد معصوم من الخطأ منزه عن الذنب و الخطيئة و النسيان.

وعلي هذا يتهاوي الإفتراض السابق لأن كلّ فرد أفراد الأُمّة قابل للخطأ غير معصوم عن الذنب و ليس في مأمن عن الغفلة و السهو، و بالتالي فهم عملياً ليسوا بمنأي عن الواقع في الخطأ، و هذا ما يؤدي إلي جرّ الأحكام الإلهية الي هاوية التحريف و الضلال، و هم في كلّ الأحوال سيكونون مغذورين لإنّهم ليسوا معصومين في تحرّي الحقّ و الكشف عن الواقع الذي ينسجم مع الشريعة الإلهية.

ويترتب علي هذا انحراف خطير عن الصراط المستقيم الذي لا يعدو كونه طريقاً وحيداً، و هو بذاته الذي يمكن الإنسان من نيل الكمالات الإنسانية الممكنة و ينقل ذلک من دائرة القوة إلي دائرة الفعل. وستكون حركة النوع الإنساني بلاغاية لإنعدام الطريق الذي يربط بين عالم الغيب الشهود.

إشكال آخر

انّكم تنادون بأنّ وجود الإمام ضرورة إلهية و أن الله عيّن معصومين من أجل تطبيق الشريعة و المحافظة علي استمرارها و أن ذلک سيجسد بالتالي طريق التكامل المرسوم للبشرية.

ومن هنا فإن الله سبحانه عيّن عليّاً ابن أبي طالب و أحد عشر فرداً من ذرّيته أئمة للمسلمين، و هذا يعني ان الله عزوجل قد فعل شيئا لا فائدة من و رائه، ذلك أنّ هؤلاء الأئمة جميعاً و باستثناء الإمام علي الذي حكم فترة و جيزة ظلّوا بمنأي عن سدّة الحكم و قيادة المسلمين.

فهل من المقبول عقلاً أن ننسب عملا كهذا إلى الله و تعالى؟!
الجواب

لقد أثبتنا خلال البحوث السابقة ان الحكمة الإلهية تقضي و من أجل استمرار مسيرة التكامل الإنساني وجود فرد اجتباه الله ليكون هاديّا للبشرية، وحتي لا يكون للناس حجّة و لا عذر. فالأئمة أفراد اجتباهم الله ليكونوا هداة للبشرية و معالم في الطريق إلي الله عزوجل.

وإذن فبوسع البشرية السعي لتهيئة الظروف المناسبة و الأرضية الصالحة لتأسيس جهاز حكومي يكون الإمام في قمته الهرمية، و لو حدث تقصيرفي ذلک و بقي الإمام مستبعداً عن ذلک، فليس هناک من يتحمل مسؤولية التقصير سوي الناس أنفسهم، لأن الله عزوجل قد اختار للناس أئمتهم و حدد الرسول (صلي الله عليه و آله و سلم)أسماءهم، إنّه ليس هنا من يتحجج بخرق القانون الطبيعي الذي ينهض علي الإسباب و المسببات و فرض حكومة المعصوم علي الناس با لقوة.

وإضالّة إلي كلّ ما ذكر فإن الإمام بمزايا عديدة:

إنّه مثال كامل للإنسانية في كلّ شؤون الدين حيث يتجلي فيه الفيض الإلهي بنحو كامل.

إنّه أمين علي الشريعة الإلهية كما نزلت عي قلب سيّدنا محّمد(صلي الله عليه و آله و سلم) و هو مبلّغ للرسالة.

إنّه منتخب من قِبل الله لخلافة الرسول (صلي الله عليه و آله و سلم) في قيادة الأُمة الإسلامية.و إذا أخفق المسلمون بالإستفادة من مزية الإمامة الثالثة فأن هذا يعود إلي سوء حظهم و عدم أهليتهم للإحتفاظ بالإمام كخليفة للنبي الأكرم (صلي الله عليه و آله و سلم).

ولكنهم لن يحرموا المزيتين الأولي و الثانية، فأولي تكوينية أدرک المسلمون ذلک أم لا، نهض الإمام بمسؤوليتة في الحكم أم أقضي عنه.

وفي الثالنية، فلقد أثبت التاريخ أن أهل البيت كانوا حبل النجاة و كانوا مرجعا ً للمسلمين في كثير من المعضلات التي ألمت بهم، فلقد سعي أئمة أهل البيت و بالرغم من كلّ المضايقات، في نشر الإسلام و تغزير الرسالة المحمدية، وأحيطوا مؤامرات الأعداء بتضحياتهم.

وببركة وجود الأئمة (عليهم السلام) أصبح للمسلمين ميراث ضخم من الأحاديث الشريفة في كلّ شؤون الدنيا و الدين، فهناک آلاف الأحاديث في التفسير وفي الأخلاق، و في الفقه، و قليل من التأمل يكشف للمرء الخدمات العلمية الكبري التي قدمها أهل البيت (عليهم السلام)، و ليكن نهج البلاغة مثال واحداً و شاهداً علي الميراث الضخم الذي خلفه الأئمة (عليهم السلام).

يقول ابن أبي الحديد:

ما أقول في رجل تغزي إليه كلّ فضيلة، و تنتهي إليه كلّ فرقة، و تتجاذبه كلّ طائفة، فهو رئيس الفضائل و ينبوعها

وأبو عذرها و سابق مضمارها و مجلّي حلبتها، كلّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، و له اقتفي، و عي مثاله احتذي، و من كلامه اقتبس، وعنه نقل، و إليه انتهي، و منه ابتدأ، فإن المعتزلة -الذين هم أهل التوحيد و العدل و أرباب النظر ومنهم تعلّم الناس هذا الفن -تلامذته وأصحابه، لأنَّ كبيرهم و اصل بن عطاء تليذ أبي هاشم عبدالله بن محّمدبن الخليفة وأبو هاشم تلميذ أبيه و أبوه تلميذه (عليه السلام)، واما الأشعرية فإنّهم ينتمون إلي أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري و هو تلميذ أبي علي الجبائي، و أبو علي أحد مشايخ المعتزلة؛ فالأشعرية ينتهون بآخرة إلي استاذ المعتزلة ومعلّمهم و هو علي بن أبي طالب (عليه السلام).

واما الإمامية و الزيدية فانتما ؤهم إليه ظاهر.

ومن العلوم: علم الفقه و هو (عليه السلام) أصله و أساسه، و كلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه.مستفيد فقيهه، أما أصحاب أبي حنيفه، كأبي يوسف و محمد و غيرهما، فأخذوا عن أبي حنيفة، وأما الشافعي فقرأ علي محّمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضا إلي أبي حنيفة، و أما أحمدبن حنبل، فقراءعلي الشافعي فيرجع فقهه أيضا إلي أبي حنيفة؛وأبوحنيفةقرأعلي جعفربّن محّمد (عليه السلام)، و قرأجعفر علي أبيه (عليه السلام)، و ينتهي الأمرالي علي (عليه السلام).وامامالک بن أنس، فقرأعلي ربّيعة الرأي، و قر ربّيعة علي عكرمة، و قرأعكرمة علي عبدالله بن عباس، و قر عبدالله بن عباس علي علي بن أبي طالب.

وأيضا فإن فقهاءالصحابة كانوا: عمربّن الخطاب، و عبدالله بن عباس و كلّاهما أخذعن علي (عليه السلام).اما ابن عباس فظاهر، و اماعمرفقد عرف كلّ أحد رجوعه إليه في كثيرمن المسائل التي أشكلّت عليه و علي من الصحابة، و قوله غير مرّة: لولا علي لهلک عمر، و قوله: لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن، و قوله لا يقين أحد في المسجد و علي حاضر.

وقد روت العامة و الخاصة قوله (صلي الله عليه و آله و سلم): أقضاكم علي، و القضاء هو الفقه.

ومن العلوم: علم تفسير القرآن و عنه اخذ و منه فُرّع، و إذا رجعت إلي كتب التفسير علمت صحة ذلک، لأن أكثره عنه و عن عبدالله بن عباس، و قد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له، و انقطاعه إليه، و إنّه تلميذه و خريجه.وقد قيل له: اين علمک من علم ابن عمک؟ فقال: كنسبة قطرة من المطرإلي البحر المحيط.

ومن العلوم: علم الطريقة و الحقّيقة، و أحوال التصوف؛وقد عرفت ان أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام، اليه ينتهون، و عنده يقفون، و قد صرح بذلک الشبلي، و الجنيد و سري و أبو يزيد البسطامي، و يكفيک علي ذلک الخرفة التي هي شعارهم الي اليوم وكونهم يسندونها بإسناد متّصل عليه (عليه السلام).

ومن العلوم: علم النحو والعربية و قد علم الناس كافَّة إنّه هو الذي ابتدعه و انشأه و أملي علي أبي الأسود الدؤلي جوامعه و أصوله؛ ومن جملتها: الكلام كلّه ثلاية أشياء: اسم و فعل و حرف1.

ونظرة في حياة الإمام الصادق تكفي للدلالة علي سعة و شمول مدرسته في الحواضر الإسلامية، و عدد العلماء الذين تتلمذوا علي يديه.

فلم ينقل عن غيره كما نقل عنه من أحاديث حتي روي عنه اكثر من أربعة آلاف راوكلّهم يقول "حدثني جعفر بن

محمّد" وفيهم أئمة المذهب و علماء كبار كمالك بن أنس و شعبة بن الحجاج، و سفيان الثوري، و ابن جريج، و عبدالله بن عمرو، و روح بن قاسم، و سفيان بن عيينة، و سليمان بن بلال، و إسماعيل بن جعفر و حاتم بن إسماعيل، و عبدالعزيز المختار، و وهب بن خالد، و إبراهيم بن الطحان.

كما أخذعنه الشافعي و الحسن بن صالح و أبو أيوب السجستاني و عمربن دربنار وأحمدبن حنبل2.

وانتشرت علوم الصادق (عليه السلام) بين المسلمين، و رويت عنه أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) وأخذ عنه علماءالإسلام مثل يحيي بن سعيد و ابن جريج و مالك بن أنس، و الثوري، و أبوحنيفة3.

وبلغ الامام الصادق في علومه شأواً بعيداً حتي قال الجاحظ بإنّه ملأ الدنيا علماً4.

وانتشرت علومه في المدن الإسلامية5 و تتلمذ علي يديه الكثير من علماء الإسلام.
اشكال ثالث

ان علي الخليفة الحقّ ان يسعي في تعريف نفسه الي الناس و المطالبة بالحكم، كما فعل ذلک رسول الله الذي ما فتئ يدعو الناس إلي نفسه.

أليس من العجيب أن يخفي الخليفة نفسه، و في الحالة ما يكون ذنب الناس و تقصير هم في عدم القناعة به، فمن بين الأئمة الاثني عشر لا نجد غير علي بن أبي طالب حاكماً و ل انجذ غير الحسين (عليه السلام) يطالب بالخلافة كحقّ طبيعي له فيما نجد الحسن يستلم منصب الخلافة فلا يحتفظ بها، بل إننا تري علي بن الحسين منزوياً منصرفاً عن الدنيا مفضلاًحياة الدعة، حتي عندما انتفض سكان المدينة المنورة ثائرين علي حكومة يزيد سنة 63هـ، نراه يغادر المدينة في تلک الظروف العصيبة6.
الجواب

صحيح ان علي الخليفة أن يسعي لتسنم مكانه الطبيعي في الحكم و القيادة. علي ان ذلک ينبغي أن يتم بوسائل خاصعة لموازين العقل تكون مصلحة الإسلام العليا هي الأساس في المحاسبات جميعا.

فدراسة الظروف العامّة و المناسبة لأي تحرّک نحو الهدف المنشود هي الإطار لموقف الإمام و أسلوبه في حفظ الشريعة.

ليس من الإنصاف و لامن المنطقي أن نتوقع من الأئمة و من أجل استلام سدة الحكم أن يقدموا علي ارتكاب أي عمل عنيف يرفضه العقل لعدم جدواه.

لقد كان علي بن أبي طالب هو الخليفة بعد رسول الله (صلي الله عليه و آله وسلم) و قداغتصب حقّه، و لكنه لم يتوسل بكل شي ء من أجل استرداد حقّه، وغضّ النظر عن ذلک من أجل مصلحة الإسلام بل وقف ازاء الخلفاء - و بالرغم من كلّ مواقفهم - موقفاً ايجابياً و لم يكم لبيخل في تقديم العون لهم وقت الحاجة، لأن المهم لديه ليس الحكم بذاته بل استمرار الدين و مصلحة الإسلام العليا.

وخلال كلّ ذلك لم يكن الإمام (عليه السلام) ليسكت عن المطالبة بحقه والاستدلال علي أخقيته في الخلافة و كان يحذّرالأُمّة من العواقب الوخيمة التي تترتب علي اقصائه عن الإدارة و القيادة، و لقد اكتشفت الأُمّة بعد ان بلغ الإنحراف ذروته خطأها، فاندفعت بعد مصرع عثمان الي بيعة علي (عليه السلام).

وتسلم الامام الحسن الخلافة بعد استشهاد أبيه و لكن معاوية الذي كان يخطط منذ عشرين سنة للإستيلاء علي الحكم كان قد أحكم قبضبه علي الشام وأعدّ الأرشية المناسبة التي تمكّنه الاستيلاء علي الخلافة بالقوّة. ولقد أعرب الامام الحسن عليه السلام منذ تولّيه الخلافة عن موقفه الحازم ازاء معاوية من و أعدّ العدّة لمواجهته عسكريا، و لكن تطورات الأحداث و ما لعبه معاوية من أدوار قذرة في خداع الناس، أفشلت خطط الأمام في الاعداد لحرب مصيرية وتصحيح الأوضاع.

وكان لوسائل معاوية و إغراءاته الأثر الكبير في إحدث أكبر انشقاق في جيش الإمام الحسن و انحيازهم إلي قوّات معاوية في أكبر حادث خياني دفع الإمام الحسن إلي تغيير مواقفه، و التفكير بمصير الإسلام؛خاصّة بعد تعرضه الي عدة محأولات دنيئة لاغتيا له، و تفكّک جيشه بل و إبداء البعض استعدادهم في التعاون مع معاوية و تسليم الحسن حيّا ً.وفي خضم هذه الحوادث المثيرة والعاصفة، كيف يمكن للحسن (عليه السلام) أن يغامر يخوض حرب مصيرية والتضيحة، بأخلص أنصاره أمام جيش منظم قادر علي اقتحام الكوفة متي شاء.

ولم يكن معاوية غبيّا ً خلال تلک الفترة، فلقد كان يسعي إلي الاستيلاء علي الخلافة، و كان يعدّه نفسه لأن يكون خليفة للمسليمن فكان يتظاهر بالدين وحماية المظلومين و رغبتة في السلام.

وهكذا وجد الإمام الحسن نفسه مضطراً للإستجابة لدعوات السلم التي ما فتئ معاوية يوجهها يوميا.

ان من يتأمل بنود الصلح الموقّعة بين الطرفين يكتشف خطة الامام الحسن في فضح الوجه الحقيقي لمعاوية الذي أخفاه طيله تلک المدّة التي سبقت استيلاءه علي الخلافة.

ان مطالعة تلک الحقبة العاصفة من الزمن تُظهر ان الامام الحسن لم يتأخر في العمل كلّ ما بوسعه من أجل تصحيح الأوضاع دون جدوي، و لكن الحوادث كانت تسير لصالح معاوية لحظة بعد اخري، فوجد الإمام نفسه وحيداً ً تقريبا ً فسلّم الأمر لمعاوية حقناً لدماء المسلمين أن تذهب هباء ً في حرب خاسرة.

فهل من الإنصاف ان نتهم الإمام الحسن (عليه السلام) بإخفاقه في الاحتفاظ بالخلافة دون ان نتفهم ظروف تلک الحقبة المريرة من التاريخ الإسلامي؟

لقدحول معاوية العراق آنذاک - والكوفة بالخصوص - الي مسرح دمويّ رهيب لتصفية الوجود الشيعي، و بدأ سلسلة من الاغتيالات السياسية طالت العديد من الزعماء توّجها باغتياله للامام الحسن مسموما ً.كلّ ذلک من أجل احتفاظه بالسلطة و تمهيد الأُمور لابنه (يزيد)...ذلک الشاب النزق الذي لا يعرف غير القتل و الخمرة و ملاعبة القرود، فارتکب و خلال مدّة حكمه القصيرة مذابح يندي لها جبين الإسلامية؛ بدأها بمذبحة كربلاء حيث قتل الحسين علي نحو مأساوي فجيع، و تلاه اجتياح المدينة و انتهاک الأرعراض و قتل سبعمئة صحابي. ثم محاولة اقتحام مكّة بعد قصف الكعبة بالمنجنيق و إحراقها. وهكذا أثبت الأمويون أنّهم لايتورعون عن ارتكاب أي عمل

مهما بلغت قذراته من أجل الاحتفاظ بالسلطة و التشبّت بالحكم.

وفي خضمّ تلك الحوادث المريرة ماذا كان بوسع الإمام زين العابدين أن يفعل؟ غيربثّ الوعي في ضمير الامّة، و السعي من أجل ايقاضها.ولنتأمل في رسالته الي (الزهري) العالم المشهورفي عصره:

"فانظرأي رجل تكون غداً إذا وقفت بين يدي الله فسألک عن نعمته عليک، كيف رعيتها و عن حجته عليک كيف قضيتها و لا تحسبن الله قابلاً منک بالتعذير ولا راضياً منک بالتقصير، هيهات هيهات ليس كذلک أخذ الله علي العلماء في كتابه، إذ قال تعالي في آل عمران: "لتبيننه للناس و لا تكتمونه" واعلم إن أدني ما كتمت و أحق ما احتملت أن آنست وحشة الظالم و سهلت له طريق البغي بدنوّک منه حين دنوت و إجابتک له حين دعيت فما أخوفني أن تبوء غداً بإثمک مع الخونة و أن تسأل عمّا أخذت بإعانتک علي ظلم الظلمة، أخذت ما ليس لک ممّن أعطاک، و دنوت ممّن لا يرد علي أحد حقّاً و لم ترد باطلاً حين أدناک وأحببت من حادالله.جعلوک قطباً أدروابک رحي مظالمهم و جسراً يعبرون عليک إلي بلاياهم و سُلّماً إلي ضلالتهم، داعياً إلي غيّهم، سالكاً سبيلهم، يدخلون يک الشک علي العلماء ويقتادون بک الجهّال اليهم فلا يبلغ أخص وزرائهم و لا أقوي أعوإنهم إلّا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم و اختلاف الخاصة و العامة إليهم، فما أقل ما أعطوک في قدر ما أخذوا منک و ما أيسر ما عمّروا لک، فكيف ما خرّبوا عليک.

والنظرلنفسک فإنّه لا ينظر لها غيرک، و حاسبها حساب رجل مسؤول، وانظرو كيف شكرک لمن غذاک بنعمه صغيرا و كبيرا، فما أخوفني أن تكون كما قال الله تعالي في الأرض: "فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدني و يقولون سيُغفر لنا"انّک لست في دارمقام، أنت في دار قد آذنت بالرحيل، فما بقاء المرء بعد قرنائه. طوبي لمن كان في الدنيا علي و جل و يا بؤس لمن يموت و تبقي ذنوبه يعده "7.

من الظلّم ان نتهم الامام السجاد بالإنزواء والاعراض عن الدنيا و ما يجري فيها، دون ان نلقي نظرة علي الظروف العاصفة التي اكتنفت حياته، و المخاطر المحدقة بالإسلام و المسلمين.

ان نظرة فاحصة في (الصحيفة السجادية) تكفي للدلالة علي أن الامام زين العابدين (عليه السلام) كان يعيش في قلب الهم الإسلامي، و كان يستخدم الدعاء كوسيلة متاحة لتجذير الإسلام و عقائده في القلوب المؤمنة.

ان الصحيفة السجادية لوحدها تعد تراثاً إسلامياً رائعا يحتل المرتبة الثانية بعدالقرآن الكريم.

وليس من الإنصاف أبداً أن يتهم الكتاب الامام زين العابدين بأنّه كان منزوياً إلي حد ما مفضلاً حيا ة الدعة و أنّه غادر المدينة المنورة لينجو بنفسه من مذابح الجيش الاموي.

وإذا كان الأئمة الأطهار في شغل شاغل عن هموم الخلافة، فبما نفسّر اعتقال الامام السجاد و إرساله مخفوراً إلي الشام بأمر عبد الملک بن مروان؟!

ولما ذا أمر هشام بن عبد الملک باعتقال الامام الباقر (عليه السلام) وحضاره الي دمشق؟

ولما اذا كان الدوانيقي يتوعد الامام الصادق (عليه السلام) بين فترة و اخري، ثم يأمرجلاوزته بإحضاره الي العراق؟

وكم هي المرات التي قرّر فيها قتله والتخلص منه؟

ولماذا أمضي الإمام الكاظم سنوات طويلة من عمره الشريف في السجون والزنزانات المظلّمة إبّان تعاقب المهدي و الرشيد على الحكم في بغداد.

وبماذا نفسر خطط المأمون في حصار الإمام الرضا في لعبة العهد ثم تصفيته بالسمّ؟

ولماذا اقتحم الجلاوزة بأمر المتوكل منزل الامام علي الهادي ليلا ً وتفتيشه؟ ولماذا و ضع تحت الاقامة الجبرية في سامراء كلّ تلك السنين؟ ولماذا حاول قتله مرات و مرات الي أن تمّ اغتياله بالسم على يد المعتمد العباسي؟

ولماذا وُضع الامام الحسن العسكري تحت الإمامة الجبرية و المراقبة المباشرة في منطقه عسكرية في سامراء؟ ولماذا زجّ في السجن المرة بعد الاخرى؟ ولماذا تعرّض منزله للتفتيش بعد رفاته؟!

فهل هناک من يظن بأن الخلفاءالذين شنّوا تلك الحرب التي لا هوادة فيه علي الأئمة و أن كلّ تلك الضغوط و الممارسات اللانسانية التي الستهدفت تصفية أنصارهم، كانت من أجل أن الأئمة كانوا يمارسون دورا ً شاديا و عظيما ً؟ أم إنّهم كانوا يشكلون خطراً يتهدد حكوماتهم بالزوال؟ هذا هو التاريخ يشهد بأن الأئمة كانوا برفعون لواء المقاومة و مواجهة الظلم بكلّ صوره و أشكاله، و كانوا يسمعون إلي إقامة حكم الله في الأرض.
إشكال رابع

هل هناك جدوي من وجود إمام هو غائب في الأصل؟ وهل قدم حلا ً لمشكلّة ما، هل بين حلالاً أو حراما ً؟ ان مفهوم الإمام أن يكون بين الناس، لا غائبا ً عن الأنظار8.
الجواب

لقد أشرنا فيما مضي لدي بحثنا أدلة الإمام الي أن للامام ثلاث مزاياً تترتب علي وجوده:

1- إنّه فرد كامل، يجمع كلّ الفضائل الإنسانية، و إنها تتجسد فيه فعلا ً؛ لتعكس امكانية البشر علي التكامل، و هو بهذا انعكاس للفيض الإلهي.

2- إنّه حافظ و أمين علي الشريعة، و مبلّغ له.

3-ولاشك ان الفائدة الأولي قائمة حتي في غياب الامام، فالامام و من خلال الأدلة العقلية و الأحاديث يمثل وجوداً ضروريا ً لاستمرار وجود النوع الإنساني؛ لأنّه يمثل الإنسان المثال الذي يجسّد غايته التحرک البشري في طريق الكمال.

وهو محلّ انعكاس الفيض الإلهي و حلقة الوصل بين عالمي الغيب و الشهود.

وفي انتقاء وجودة التكويني تنتقي العلاقة بين العالم المادّي و العالم الملكوتي و يفقد النوع الإنساني مبررات وجوده، و سيكون انقراضه أمرا ً حتيما.

ومن هنا فإن ضرورة الإمام قائمة سواء كان غائباً أم حاضراً بين الناس.

امّا ما يتعلّق بالمنقطتين الأخر يين، فيمكن القول: إن المجتمع الإسلامي والإنساني يعيش حرماناً بسبب غيابه الذي اضطر إليه اضطرراً، فقد اصطفاه الله واختاره للناس إماماً، و لكن الناس هم من يقع عليهم اللوم في عدم الاستفادة منه في إدارة شؤونهم و قيادتهم. وعندما يسعى المجتمع الإسلامي إلي إعداد و سيظهر الامام للناس للقيام بمهمته في تنفيذ شريعة الله في حياة البشرية، و قيادة الإنسانية إلي هدفها النهائي9.
إشكال خامس

في ضوء نظرية الإمامة و قيادة المعصوم سيكون المجتمع الإسلامي غير مسؤول عن تشكيل الحكومة و وجود قائد يتولّي زمام الامور؛ لأنّ كلّ حكومة ستفتقد شرعيتها، و عليه ستبقي الامّة الإسلامية بلا جهاز حكومي يدير شؤونها!!
الجواب

إننا لم نقل أبداً و لن نقول بانتفاء مسؤولية الأُمّة في تشكيل حكومة اسلامية عند غياب المعصوم، أو رفض كلّ حكومة تنهض خلال الغيبة، كلّا لايمكم قبول ذلك؛كلّ الشعوب و المجتمعات البشرية تتفق و من خلال محاسبات عقلية صرفة علي ضرورة وجود قانون و حكومة و نظام، و بدون هذا تعم الفوضي والفساد كلّ ميادين الحياة.

هذا من جهة، و من جهة اخري: فإن المتأمل في أصل الخلقة الإنسانية يدرك آن البشر و لدوا أحرارا و أنّه لاحق لآيٍ كان بالتدخل في فرض اسلوب للحياة معين على الآخرين، و ان استخدام القوة في تسخير الآخرين هو ظلم محض حتي لو ادّعي رعاية المصلحة العامة في ذلک.

فالعقل الإنساني يعتقد قاطعاً الله سبحانه وحده الذي له الحقّ في انتخاب اسلوب الحياة المناسب للبشرية؛ لأن للناس جميعاً هم عباده، و هو الخالق والمالك لهم، فله الحقّ في التدخل في حياتهم.

ولو أوكل الله سبحانه ذلک الي غيره فهو مطلق التصرف في ذلک، يحكم كيف يشاء، و لقد أثبتنا خلال بحوث سابقة أن الله عزوجل أوكل قيادة الإنسانية إلي الأئمة المعصومين الذين عينهم من قبل، و عرفهم سيّدنا محمّد (صلي الله عليه و آله و سلم)للمسلمين و جعل لهم حق لاخلاقة من بعده.

وإضافة الي هذا، و ما دامت مسألة الحكم و سيادة القانون ضرورة حياتية يتفق عليها البشر جميعاً، فإن الإسلام لا يقف منها موقفاً سلبياً بل يؤكد ضرورتها دينياً، و ان على المسلمين كسائر الامم الاخري السعي لتشكيل حكم اسلامي، فإذا وجد الإمام المعصوم فهو أحق من غيره في قيادة الأُمّة، و علي المسلمين السعي لتعزيز موقعه و تثبيت حاكميته لإنّها حاكمية الله عزوجل، و إلّا فعليهم السعي أيضاً لتشكيل حكومة صالحة تنهض بمسؤولية تطبيق الشريعة الإلهية ما أمكن و تهيئة المناخ المناسب لحكومة الامام المعصوم10.

---

1. شرح ابن أبي الحديد: ج1ص18.

2. مناقب بن شهر آشوب: ج4ص247.

3. الفصول المهمة: ص204.

4. الامام الصادق و المذاهب الأربّعة: ج1ص55.

5. المصدر السابق: ص56.

6. داوري - باللغة الفارسية - أحمد كسروي ، ص28.

7. تحف العقول طهرا ن 1384: ص218.

8. داوري ، 53

9. لمزيد من التفصيل يراجع كتاب"دادگستر جهان"للمؤلف نفسه و قد ترجم الي العربية تحت عنوان"حوارات حول المنقذ"-المترجم.

10. من كتاب دراسة عامة في الامامة.